بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 43 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:23\02\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

وصل الكلام إلى الآية الواحدة والعشرين، وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذا قيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعيرِ﴾.

قبل الدخول في مفردات هذه الآية المباركة وشرح مجمل المراد منها، لا بد أن نقف كما هي العادة على الترابط السياقي مع الآية السابقة، ففي الآية السابقة كان المشهد هكذا: دلائل وبينات واضحة وآيات باهرة أنفسية وآفاقية تدل على وجود خالق، وتدل على التوحيد، ومن جهة أخرى هناك نعم ظاهرة وباطنة سابغة، ومع ذلك تجد بعض الناس يجادلون ﴿فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنيرٍ﴾.

وبينا أن اقتران الآيات الباهرة مع النعم السابغة بالمجادلة في الله أعطت شناعة كبيرة لهذا العمل، فالسياق نفسه يعطينا مشهداً آخر على شناعة هؤلاء، وقبح عملهم. إذن ما زال الكلام في سياق واحد.

هؤلاء لا يكتفون مع وضوح الآيات وإسباغ النعم بصرف المجادلة، بل لو راجعناهم كرة بعد أخرى، ولم نكتف بالشعور والإحساس، فحولنا توجد آيات باهرة، في السماوات، والأرض، والكواكب، والنجوم، نعم ظاهرة وباطنة، هذا يعطينا أن الشعور والإحساس ينبغي أن يدفع العاقل إلى التوحيد من دون أي كلام، لا نحتاج إلى كلام؛ لوضوح كل هذه الأمور.

نظير ما قاله هارون الرشيد للإمام الكاظم عليه السلام عظني، قال: أنت لا تحتاج إلى وعظ، يكفيك أن تنظر حولك لكي تتعظ[1].

[1] الفصول المهمة في أصول الأئمة (تكملة الوسائل)، ج3، ص: 378. مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ فِي الْمَجَالِسِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: كَتَبَ هَارُونُ الرَّشِيدُ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِظْنِي وَأَوْجِزْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: مَا مِنْ شَيْءٍ تَرَاهُ عَيْنُكَ إِلَّا وَفِيهِ مَوْعِظَةٌ.

إذن نفس الشعور والإحساس بهذه الآيات الباهرة والنعم الظاهرة والباطنة يدعونا إلى التوحيد.

لكن عندما يختم على القلب يضعف هذا الشعور، فنحتاج إلى وسيلة أقوى، فجاءت الآية الثانية لإعطاء الوسيلة الأقوى، جاءت إلى الكلام، إلى ترتيب مقدمات بواسطة النقاش والبرهان أمام هؤلاء ﴿وَإِذا قيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ هذا التعبير القرآن في غاية الدقة، فلم تقل الآية "اتبعوا الكتاب" بل جاءت بمفهوم اشتقاقي ﴿ما أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ هذا المفهوم الاشتقاقي يستبطن الفراغ عن وجود إله، وعن وجود رسول ووحي وكتاب، بينما لو عبرت الآية "اتبعوا الكتاب" لا تدل على الفراغ عن هذه الأمور.

إذن هذا التعبير تعبير برهاني يستبطن مقدمات مطوية أعطيت لهؤلاء، أمام هذه الحجة القولية البرهانية هؤلاء الناس لا جواب لهم إلا بقولهم ﴿قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ فحجج صامتة، وهي الآيات الباهرة والنعم السابغة، وحجج قولية ووجهت ﴿نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ لا نريد شيئاً لم نتعود عليه، عشنا كل تلك المدة المديدة ونحن عاكفون على عبادة أصنام ونريد أن نبقى على حالنا؛ لأن هذا الدين الجديد وهذه الشريعة الجديدة لا تتناسب مع أهوائنا، ولها متطلبات ولها تكاليف، فالأسلم لنا أن نبقى على ما نحن عليه ﴿نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾[2] وهذا هو التقليد الأعمى، وهذا هو التقليد الجاهل، التقليد الذي يرفضه القرآن الكريم في كثير من الآيات.

لو تأتي ببرهان تثبت أن ما عليه الآباء والأجداد، فهذا يكون من مقارعة الحجة بالحجة، أما من دون حجة، لا نريد أن نسمع شيئاً، ونريد أن نبقى على هذه الحالة.

فإذن هذا المقلب وهذه الصفحة الجديدة لحال هؤلاء تماماً تنسجم مع المقلب الأول والصفحة الأولى.

ليأتي الجواب بعد ذلك ﴿أَوَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعيرِ﴾ رحمة الله الواسعة التي ورد في بعض الروايات أنه أرأف بكم من الأم الرؤوف، حتى في حالة التهكم والاستهزاء يعطينا قالباً أمام العقل يدعوه إلى الاستيقاظ، ونعرف أنه في العرف بعض التهكمات والاستهزاءات تبعد، لا أنها تقرب، بينما هذا التهكم القرآني على الرغم من كونه تهكماً فيه إيقاظ، وفيه تنبيه.

---

[2] البقرة 170

﴿أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعيِ﴾ استفهام توبيخي، لكنه في الوقت نفسه يبين لهم أن البقاء على ما اعتاده الآباء والأجداد إتباع للشيطان، والمتبع للشيطان لا يقوده إلا للهاوية.

فكما لاحظنا على الرغم من وجود التهكم والتوبيخ إلا أنه فيه إيقاظ، وفي هذه الآيات -آيات سورة لقمان- كما لاحظنا كثيراً تطرح المواقف التي تهز الكيان، وتنبه الغافل، أعطيناكم بصمت آيات باهرة ونعماً سابغة، ثم جاء النبي ﷺ وقدم لكم الحجج في قالب لفظي ﴿قيلَ لَهُمُ﴾ ومع ذلك لم تتحركوا، وقلتم لا نهتم بكل ذلك في قبال البقاء على ما ألفينا عليه آبائنا وأجدادنا.

لكن في الختام أعظكم وأقول لكم أن البقاء على عادة الآباء والأجداد هل تكون حتى لو كانت تقودكم إلى الهاوية؟ إذن في عين التوبيخ محاولة أخيرة للوعظ والإرشاد. أن نتيجة البقاء على عادة الآباء والأجداد تقودكم إلى الهاوية.

﴿أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعيِ﴾ تتضمن هذه الآية أن هذا التقليد المحض الأعمى هو من وسوسة الشيطان، والشيطان لا يقود إلا إلى عذاب السعير.

وكما هي العادة في القرآن الكريم في الأسلوب القرآني، بل في هذه السورة بالذات، عندما يبين لنا حال طائفة يأتي ليبين لنا حال ما يقابلها، وهذا أيضاً فيه وعظ وإرشاد؛ لأن الأمور حين المقابلة تتضح حقائقها ومجرياتها بشكل أوضح، فجاءت الآية الأخرى ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.